العرب في المعترك الدولي

بقلم الدكتور ناصر الحاني

لنا قضية خطيرة دونُ شك، وهي عادلة دون شك، ولكن لا يكفي – في دنيا اليوم – ان يكون لشعبما قضية، ولا يكفي ان تكون هذه القضية عادلة ليعيها العالم ويقبلها مالا على انها من الحقائق التي تستحق ان يناصرها ويرعاها . وآية هذا ما الفينا في الامم المتحدة من تناحر وتنافر حيال موقفها من الاعتداء الاسرائيلي الصارخ على الدول العربية ، ومما صحب القرارات التي نوقشت على اكبر مسرح عرفه الانسان في تاريخه الطويل ، وظلت – هذه القرارات – عرضة للتحوير والتعديل والتبديل حتى اصابها كثير مما طوح بجوهرها ، ولم تلق من التأييد ما هيأ لها الفلاح .

واذا كنا قد هزمنا على الصعيد العسكري بسبب ما عرفه العالم كله وشهده من تواطؤ الاستعمار والصهيونية العالمية مع اسرائيل وغدر اولئك وهؤلاء ومكرهم ، فان انهزامنا على الصعيد الدبلوماسي لم يكن اقل اثرا او تبعة. وليس لنا ان نسهب بهذا الصدد لان الشأن هنا ان نعرض الوضع الذي تعيشه امتنا العربية وما تحتمه طبيعة هذا كله ، لنحاول المضي قدما في معركتنا المصيرية . ولست ادري اذا كنا نعي حقا خطورة هذه المرحلة وعظم المسؤولية التي القيت على كاهل هذا الجيل ، واذا كنا نعي حقا معنى « المصيرية » الذي هو الخيار بين الموت المحتم او الحياة الحرة الكريمة .

لا مراء بأن طبيعة هذه المرحلة تحتم علينا ان نلتفت الى الماضي لنتدارسه تدارسا يرتكز على التقييم الفعال والنقد الذاتي. ولست اريد – كما يريد بعضنا – ان نمعن بالعيش في هذا الماضي والخروج الى شؤون قد لا يكون وراءها طائل اليوم ، وقد لا تخدم قضيتنا خدمة مباشرة، وسنكون حيالها كمن اقبلوا بعضهم على بعض يتلاومون وشغلوا بهذا التلاوم عن عدو يكيد بهم ويعمل على محقهم ، بل يجدر بنا ان نلتفت الى الماضي بقدر ما يعيننا على هذا التقييم المرتقب والنقد المرجو . فلقد وضح لنا جميعا اننا لم نستطع ان نهيىء لقضيتنا الكبرى جوا في المعترك الدولي يرتكز على طبيعة الوسائل التي تواكب عقلية الشعوب المختلفة وما تألف ، وفاتنا ايضا ان نكسب انصارا في اكثر الدول دعوة للتحرر وانطلاقا مع الثورة ، وحسبنا ان نتذكر ان ثلاثا وعشرين دولة لاتينية كنا نظن انها تلتقي معنا في كثير مما نهجنا وعرفنا ، فبدا لنا سوء التقدير واضحا يوم راحت هذه الدول تقف من قضيتنا المصيرية في الامم المتحدة موقفها المعلوم . فلا شك بأن الولايات المتحدة الاميركية قد لعبت دورا فعالا في هذا الموقف الذي نهجته الدول اللاتينية ومارست ضغطا متصلا سواء في العواصم المختلفة او في جنبات الامم المتحدة نفسها ، ولكننا لا نريد بهذا ان نخفف من عظم المسؤولية التي تقع علينا وعلى وسائل اعلامنا وطبيعتها عبر السنين في تلك القارة الواسعة التي تغص بعض دولها بعدد كبير من العرب تهيأت لهم مكانة عالية وتمتعوا بكثير مما يمكننا ان نفيد منه في معتركنا الدعائي الخطير .

والعجيب اننا لم نول التمثيل الدبلوماسي في هذه القارة اهمية تواكب طبيعة الروابط التي ترتبط بها شعوب اميركا اللاتينية بالشعب العربي من التعاون على مكافحة الاستعمار والمستعمرين ، ودعم استقلال الدول النامية ، وتوطيد العلاقات القائمة سلفا بيننا والتآزر على ابراز هذا كله في صعيد الامم المتحدة .

لقد كان منطق هذه العلاقات تطلب تبادل التمثيل الدبلوماسي مع الدول اللاتينية وتنسيق هذا التمثيل العربي تنسيقا يسلم الى نتائج بناءة سليمة ، ولكننا في الوقت الذي نجد فيه لاسرائيل بعثات دبلوماسية منبثة في ارجاء تلك القارة لا نجد للدول العربية تمثيلا كافيا ، بل لا نعرف سوى بضع بعثات لبنانية او اردنية او سورية منبثة هنا وهناك ، ونجد بعض البعثات التابعة للجمهورية العربية المتحدة ايضا ، ولكن اثر هذه البعثات مهما حسنت خطاها وعظمت همتها وضوعف جهدها ظل قاصرا . ولقد تهيأ لي ان اقف على ما فرطنا به في خدمة قضايانا عندما اتيح لي ان ازور بعض دول اميركا اللاتينية مرة ، وعندما ندبت لتمثيل العراق باحتفالات تنصيب السيد (فراي) رئيسا لجمهورية (شيلي) اثر انتخابه عام ١٩٦٤ .

واذا التفتنا الى موقف بعض الدول الافريقية في الامم المتحدة فاننا سنصاب بخيبة امل كبيرة ، وقد لا نجد تعليلا شافيا مهما احسنا الظن . فليس يسيرا ان نعلل موقف بعض الدول التي اقامت كيانها اثر ثورة هزت

افريقيا كلها مثل (كينيا) و (الكونغو) او دولة تربطها بنا روابط وطيدة مثل (الحبشة) .

فلا شك بأن موقف هذه الدول سيظل امام العالم كله دليلا على اننا لم نستطع ان نكسب ود اقرب الناس الينا واكثرهم ارتباطا بنا في مجالات كثيرة معلومة.

وحديث التمثيل الدبلوماسي العربي في افريقية يمثل اسوأ مأساة عرفناها ، فلقد انحسر اثرنا عن هذه القارة الكبيرة ووجدنا انفسنا نشرق باوروبا ونغرب،ونكثر من سفاراتنا بارجائها وننسى تلك القارة كلها ، واذا هيأ الله لنا ما يسلم الى اعتماد سفارة في دولة افريقية فان تلك السفارة تظل عزلاء وتقوم على عدد قليل من ممثلينا لا حول لهم ولا طول .

واذا كان لنا ان نقرر حقيقة ظلت تدور حول الوضع العربي في افريقيا او نستذكر ما تهيأ لدبلوماسيتنا هناك، فان كل شيء في هذا الميدان يشير الى عجزنا الظاهر وفشلنا الذي افادت منه اسرائيل والصهيونية واستغلته استغلالا بشعا .

لقد كنا ندعو منذ زمن طويل الى ان تنطلق الدول العربية في تعاونها مع الدول الافريقية النامية في مجال فعال تستطيع ان تقدم فيه كثيرا مما يعود بالنفع على تلك الدول ، واشرنا خاصة الى الميدان الثقافي حيث تستطيع الدول العربية ان تتعاون تعاونا بناء سواء بارسال المعلمين او الكتب المدرسية او اعداد دور للمعلمين او استقدام عدد من الطلبة للدراسة بالجامعات العربية المختلفة ، وكان الرأي ان تجمع الدول العربية كلها ما تستطيع تقديمه في هذا الحقل وتنسقه في الجامعة العربية لتستطيع الهيئة الثقافية فيها ان تتعاون على تطبيقه في الدول الافريقية المختلفة ، فنكون قد حققنا هدفا ساميا وفق خطة موحدة سليمة . ولكننا لم نستطع ان نهيىء هذا او شيئا منه ، واقبلنا على الدول الافريقية فرادى لكل منا خطة ولكل منا هدف ، ولم نكن قادرين على ان نعد شيئا واقيا ، ورأينا بعض الدول العربية التي تتنازع سياسيا في هذا الصعيد او ذاك تنقل هذا كله الى تلك القارة .

لقد استطاعت اسرائيل ان تنسق جهدها في افريقية وتنطلق في الصعيد الثقافي والاقتصادي والعسكري والتكنولوجي ، فرايناها تفيد من اخطائنا وتحاول ان تهدم ما نبني وتقوضه ، واستطاعت ـ كما اخبرني سفير افريقي مرة ـ ان تتعايش مع الدول الافريقية على انها ناشئة مثلها ، صغيرة محبة للسلم مثلها ، ولكن هذه الدول العربية ذات العدد الكبير، والعدد الواسعة تريد ان تطوح بها .

***

ويجدر بنا ان نتذكر ان اسرائيل قد حاولت ان تبقي على الصورة التي ظل المستعمرون واعداء العرب منذ مطلع هذا القرن يرسمونها للعربي ويشيعونها في الدنيا كلها سواء في الولايات المتحدة او اوروبا او اميركا اللاتينية او افريقية نفسها . واطار هذه الصورة البشعة وجوهرها ان « العربي فظ غليظ ، وهو هدام اعتدائي ، لا تقوم شخصيته على ثقافة راسخة او عقيدة ثابتة » . وكانت هذه الصورة تدور هنا وهناك ، فعمد الصهاينة اليها وصيروها في كل مجال ركيزة من ركائز دعايتهم التي بثوها في الصحافة والتلفزيون والسينما . ولقد تصدوا في الاعوام العشرة الاخيرة خاصة للتراث العربي وراحوا يشوهون القيم الحضارية التي ابدعها الفكر العربي ورعاها عبر العصور .

والعجيب اننا في العالم العربي لم نلتفت الى هذه الظاهرة الخطيرة الهدامة التي باشرها الصهاينة واعوانهم في الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا خاصة بعد ان استطاعوا ان يمدوا سيطرتهم على بعض المعاهد التي تعنى بتدريس الحضارة العربية او اللغة العربية نفسها ، وحاول نفر من الذين اندسوا في تلك المعاهد ان يشوهوا حتى الحقائق المقررة عن الحضارة العربية ، ولم تسلم القومية من هذا التشويه البشع .

كما لم يسلم اكبر مصلحين عرفهما عصرنا من تشويه لحقيقة دعوتهما وكنه الاصلاح الذي بشرا به وهما جمال الدين الافغاني ومحمد عبده . لقد كنت اعجب حقا من هذا الفيض الذي لا ينقطع من الكتب التي تعنى بالبلاد العربية والشرق الاوسط والحضارة العربية والتراث الاسلامي في الولايات المتحدة واوروبا ، وادركت ان وراء هذا كله منهجا محكما يرمي الى تغطية كل الحقول التي تخص الامة العربية بكتب كثيرة تنتظمها وجهة موحدة في البحث والنتيجة ، ولا تكاد تقرأ في اكثرها او تسمع خلالها الا ما يردده الصهاينة واشياعهم . وعز في هذا المعترك ما كتبه العرب انفسهم او ما ارتكز على نتائج بحثهم ودراستهم العلمية ، ويكمن في هذا جانب خطير نسي العرب ان يؤدوا رسالتهم فيه ـ وهي من اهم رسالاتهم ـ ويحققوا واجبا قوميا هو فوق كل واجباتهم .

واذا كان هناك من عذر لنا في العشرينات او الثلاثينات من هذا القرن بسبب وضعنا العلمي والثقافي وقلة الجامعات في الوطن العربي وندرة الجامعيين الذين تضلعوا من اللغات الاجنبية الحية والثقافة الغربية ، فان هذا كله قد زالت معالمه ، وتهيأ لنا عدد كبير في الميادين العلمية والادبية والاجتماعية ، وكان علينا ان نتقصى هذا الذي جندت له اسرائيل والصهيونية العالمية عددا من اساتذتها فنحاول اعداد الدراسات القائمة على اصول البحث العلمي لتصحيح ما زيفوه والتعريف بحقيقته ، وكان علينا ان نتدارس قضايانا الرئيسية التي تؤثر في

الوضع الدولي وتتأثر بموقف الدول ولا سيما الكبرى منها فنباشر باعداد الرأي العام الاجنبي لها بوسائل فعالة مجدية بعيدة عن النهج التلقيدي الذي انتظم كثيرا من نتاجنا في هذا المجال .

لقد كانت اسرائيل فعالة في كل ميدان ، فراينا لها كتبا لا تحصى عدا ، بينها ما يستهوي كل طبقة من طبقات المجتمع الغربي ، وكنا نحار دوما حول ما نستطيع ان نعده لمن يتساءل في اوروبا واميركا عن مسألة عربية او جانب من جوانب اهم القضايا التي شغلتنا وشغلت العالم كله .

ويلوح لي اننا ظللنا نرى في الصحافة وحدها وسيلة فعالة لدعمنا ، فحاولنا جهدنا للنفاذ اليها وكسب بعضها او اقناعه برايانا والاستماع الينا ، ونسينا ان هناك وسائل في المجتمع الغربي قد تكون اكبر اثرا من الصحافة نفسها ، وقد تكون فعالة حقا في توجيه الرأي العام الذي ننشد ، كالجامعات والمعاهد والجمعيات والمنظمات وما تنشر من بحوث وكتب ، وما تصدر من نشرات دورية ومجلات متعددة . ولعل ما اصابنا من فشل في ميدان الصحافة وما لقينا من عنتها وتعصبها ضدنا هو الذي آل بنا الى الاعتقاد بان عالم الجامعات والمعاهد وغيرها لا يقل صعوبة او درجة في الوقوف ضدنا .

ان كثيرا من المثقفين العرب يرون ان قضيتنا قضية دم . وان معركتنا المصيرية تقررها المعركة العسكرية وحدها ، ونحن لا نرى هذا الراي وان كنا نقر ابتداء ان عماد معركتنا عسكري . ولا شك بان اسرائيل قد استطاعت ـ على نقيض صنعنا ـ ان تعد عدتها وتهيىء اسباب تقويضنا وفنائنا في كل صعيد ، لا فرق في هذا بين العسكري والدعائي والفكري والصحفي ، فحاولت ان تتغلغل في كل ميدان وتفيد من كل وسيلة ، ولعلي لا أغلو اذا ادعيت انها انفقت على طائراتها ودباباتها ومدافعها بقدر ما انفقت ـ هي واشياعها الصهاينة ـ على وسائل دعايتها لتكسب الرأي العام العالمي وتكسب ابرز ادباء العالم وفنانيه ومفكريه ، وقد كشفت لنا الايام الماضية القريبة صدق ما ذهبنا اليه .

ان النقد الذاتي الذي نريد ان يظل رائدنا يحتم علينا ايضا ان نتجلد في معترك نظنه سيظل محفوفا بمصاعب جمة . ويجدر بنا ان نعترف بان هذا العالم قد صغر وكثرت مشكلاته وتعددت خلافاته ، وان الشعوب الكبيرة تقع تحت وطأة كبيرة من الدعايات المختلفة ، وليس يجدينا ان نخاطب الشعب الاميركي او الفرنسي بطبيعة ما نخاطب به الشعب العربي ، بل انني لاشك شكا كبيرا بجدوى طبيعة وسائلنا التي توسلنا بها مع شعبنا نفسه . واذا كان العرب في كل مكان قد عاشوا اياما نظنها ستظل من انحس ايامهم واشدها بؤسا والما فان ايماننا بانفسنا وبعزيمة امتنا يتطلب منا ان نكون اكثر يقظة وتطلعا الى ان نشق طريقنا الى العالم لنسمع صوتنا ـ وهو صوت الحق ـ متذرعين بالوسائل السلمية الصائبة ، مدركين ان الشعوب معنا ، وان ليس من المنطق الصائب او الخطة الحكيمة ان نيأس او نلوذ بمنطق الذين لا يرون في الدنيا الا اسود وابيض ، ويقفون في اقصى هذا الطريق او ذاك . ويستعدون الشعوب علينا وعلى قضايانا ، ويحاولون ان يصيروا شعبنا العربي معتزلا . لان هذا ما تهدف اليه اسرائيل وما ظلت تعمل الصهيونية العالمية لتحقيقه .

اننا نريد ان نكون واضحين في منطقنا ، مدركين لخطانا التي نخطو ، ونريد ان نتذكر دوما ان الحديث عن الشعوب لا يعني بالضرورة الحديث عن الحكام دوما ، لان الحكام عرض ، وكل عرض زائل ، ولكن الشعوب جوهر ، والجوهر باق .

واذا كانت النكبات تحمل بين طياتها دروسا وعظات لاولئك الذين يتعظون ، فان نكبة امتنا علمتنا درسا راح اصدقاؤنا في العالم كله يرددونه قبلنا ، وفحواه اننا لا نستطيع ان نقنع العالم بعدالة قضايانا اذا لم نحسن المنطق الذي تفهمه الشعوب المختلفة وينتظم دعاوانا نهج مواكب لعقليتها ، وعلمتنا ان العالم يصغي الينا اذا كنا متحدين حقا ، وان هذا الاتحاد سواء العسكري او الاقتصادي او السياسي قوة جبارة يحسب لها العالم كله حسابا ، وتستطيع ان تحتل مكانتها اللائقة بها في كل صعيد .

لقد تحدثنا كثيرا عن الطاقات العربية الضخمة ، سواء البشرية او المدنية او الطبيعية او غير هذه ، وكنا ننسى ان هذه طاقات مبعثرة فقدت اثرها الفعال بسبب بعثرتها وتفرقها ، وسيتهيأ لها هذا الوصف الصادق لو احكمنا ضمها الى بعضها ووحدناها لتكون عربية وتنطلق عربية لا كما هو الشأن الذي عرفه العالم عنها وعنا حتى اليوم .

اذكر ان السفراء العرب في الولايات المتحدة دعوا في العام الماضي الى مهرجان اقامه صديق حميم من اصدقاء العرب في مدينة (هيوستن) الاميركية هو (دوكلاص مارشال) المعروف ، ولما وقف لتحيتهم انهى كلمته بقوله : « ان الامة العربية ستسير الى الهاوية ان هي ظلت متفرقة كما اراها ، وسترقى الى السماء اذا تهيأ لها وحدة تجمع طاقاتها الضخمة » .

واذا كان حديث الوحدة التي يريدها لنا اصدقاؤنا في العالم ، بله هذا الشعب العربي نفسه ، مؤلما وطويلا ، فان الحديث عن قصتنا مع العالم اطول ، وان تجاربنا في المعترك الدولي اشد ايلاما وادعى لكثير من التأمل والتدبر ، لنمضي في معركتنا بحدونا ايمان راسخ بانفسنا وعدالة قضايانا وبدعمنا منهج واضح قائم على ركائز وطيدة بعيدة عما الفنا زمنا طويلا ، لنستطيع ان نشق طريقنا الى شعوب العالم كله ، وسنبلغ هذا ـ اذا احسنا السير ـ مهما طال الدرب .

بيروت

ناصر الحاني